بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

من مكتبتى

الدكتور مهدى علام ، الأمين العام للمجمع ، والمشرف على المجلة

المكتبة الشخصية رفيق عزيز لصاحبها ، وتزداد الصداقة بينهما على مر الأعوام ، بل على مر الأيام فكلما أضاف إليها كتابا كان ذلك بمثابة التنمية الروحة للعلاقة بين المكتبة وصاحبها .

بل إنه إذا لم يضف إليها جديدا من الكتب ، على مدى فترة قصرت أو طالت ؛ فإن الشعور بالإعزاز لها لا يقل ، فهى للعالم الذى يقتنيها أعز من كنز المال لمختزنه .

ولا أريد — ولا أستطيع — أن أدعى أن شعورى نحو مكتبتى يمتاز عن شعور زملائى ونظرائى نحو مكتباتهم . فمن قديم وصف الكتاب بأنه « خير صديق فى الزمان » وصداقة الكتاب دائمة مهما غطى الزمان على بدئها أو على بعض مراحلها . ونحن حين يتاح لنا من الزمن مايجعلنا نقلّب بين كتب طال العهد بقراءتها ، أو بمجرد رؤيتها ، نشعر بأننا نلاقى أصدقاء قدامى ، وكأنما تناجيها ، وتناجينا ، فتعود بنا الذاكرة إلى يوم شرائها ، وإلى مبلغ السرور الذى شعرنا به حين دفعنا لها ثمنا ؛ قروشا قليلة (فى كثير من الأحيان) كما نذكر بعض ما جاء فى تلك الكتب من مسائل علمية كان لها أهمية عظيمة فى مرحلة من مراحل حياتنا .

وأستأذن القراء فى الإشارة إلى عمل شائع — أو حادث — بين كثير ممن يلحقهم الإرهاق أحيانا ، ويريدون أن يلتمسوا الراحة فى قراءة حرة لم يخطط لها ، ولم تعمد إلى هدف فكرى خاص ، فينهضون إلى رفوف كتبهم يتوسمونها حتى تقع عينهم على أحدها ، فيستلّونه ويقلبون صفحاته ، وقد يقفون عند بعضها وقفة طويلة ؛ فإذا هذه القراءة تجلب الراحة للنفس ، وتزيل الإجهاد بما تعيد إلى الذهن من ذكريات تتصل بالمادة المقروءة فى الكتاب الذى قدمته المصادفة .

وكثيراً ما ألاقى مثل هؤلاء الأصدقاء فأجد فى لقائهم متعة عقلية عظيمة .

وقد وجدت فى أحد هذه الكتب طرفة تاريخية رأيت أن أشرك قراء المجلة فيها :

فهذا كتاب « قصة الحروف الهجائية »[1] مضى على شرائى له أكثر من نصف قرن . وفى أحد فصوله يتعرض مؤلفه لخريطة لشحاذ ، منشورة فى « معجم اللغة العامية » تأليف دُورتين والمنشور سنة ١٨٦٩ ، فينقلها . وفيما يلى صورة لها :

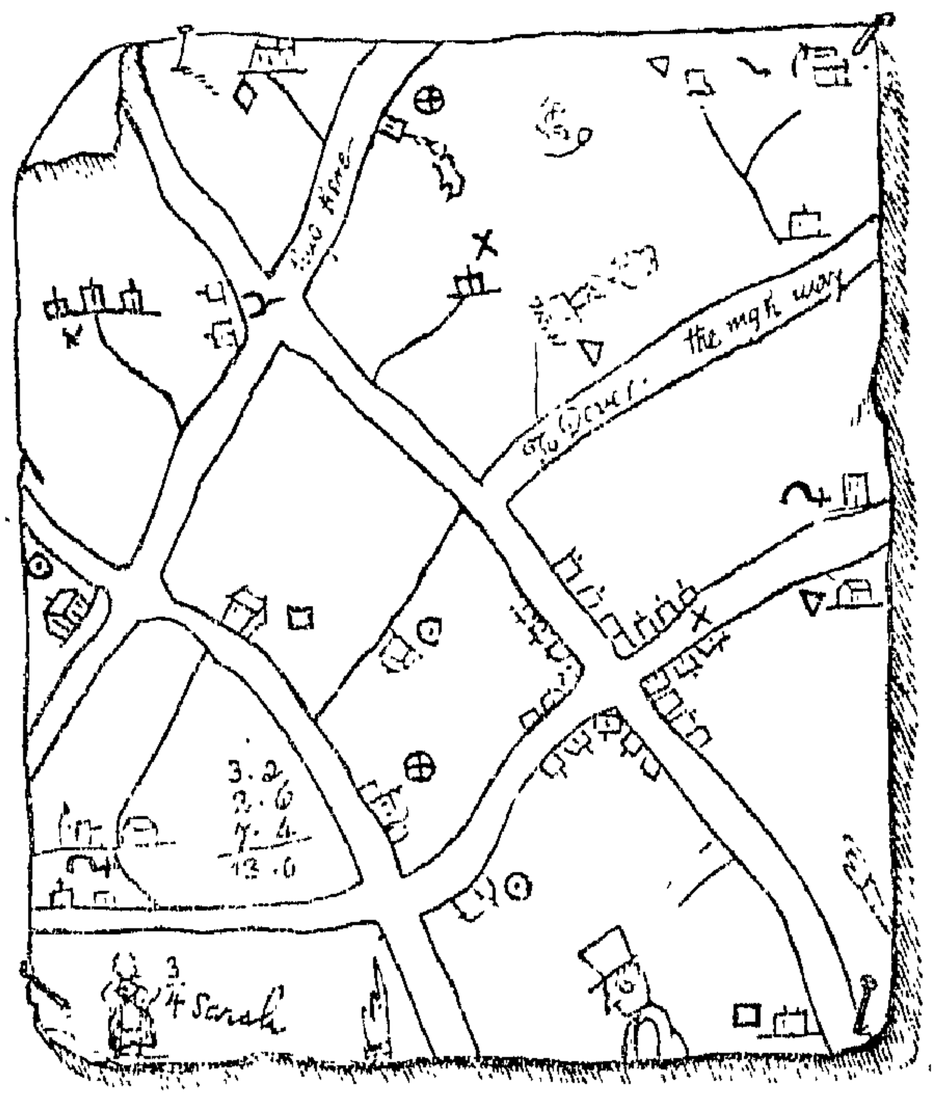

وهذه ترجمة للعلامات التى وضعها صاحبها الشحاذ ، لترشده عن الأماكن التى يزورها ، فى جولاته لممارسة نشاطه :

× لا فائدة : فى منتهى الفقر ، ويعرفون أكثر من اللازم .

+ قف إذا كان معك ما يحتاجون إليه فسيشترون . وهم على قدر لا بأس به من المعرفة.

— اذهب من هذا المسلك : فهو أفضل من الطريق الآخر . فليس هناك فائدة فى ذلك الطريق .

◊ حسن . هناك أمان . كُفَّ عن الثرثرة ، وارحل .

▽ أفقده مزيته كثرة التردد عليه .

|—| غير مناسب . من المحتمل أن يتسببوا فى إلقاء القبض عليك. احترس من الكلب .

⊙ خطر : من المؤكد شهر فى السجن .

⊕ متدينون ، ولكنهم بصفة عامة مناسبون .

* * *

وبعد فى هذه الخريطة والتعليق الذى عليها ، دلالة واضحة على أن الكُدْيَة كان لها وضع تخطيطى فى العصر الذى تنتمى إليه هذه الوثيقة . ومن غير مجازفة فى الاستنتاج ، نستطيع أن نطمئن إلى أن مثل هذا التخطيط كان معروفا لدى شحاذين آخرين ، وإن لم يدونوه بمثل هذه الدقة ، ويحولوه إلى صورة فنية ممتعة . بل يمكن أن نتصور أن بعض الشحاذين فى بلادنا لهم آراؤهم ووسائلهم فى اقتناص فرائسهم . فمنهم من لا يعتمد على تغيير « مسرح العمليات » ؛ بل يعتمد على تغير المرتادين لهذا « المسرح » . فالذين يلازمون أبواب الأضرحة يعتمدون على

---

(1) The story of the alphabet, by Edward, Cload London : George Newnes, ltd .
وليس فيه تاريخ الطبع ، ولكنى اشتريته سنة ١٩٢٢ إبان دراستى فى إنجلترة ، ويشير مؤلفه (ص ٥٦) إلى أنه نقل « الخريطة » التى أنقل صورة لها فى هذه الفذلكة من كتاب Slang Dictionary, by hotten. المطبوع (سنة ١٨٦٩) .

أن زوارها يتجددون يوما بعد يوم ، وموسما بعد موسم ، من أهل الريف . ومنهم من يعوّل على المناسبات ، كالأعياد الدينية أو حالات الوفاة أو الدعاء لأهل المرضى أمام المستشفيات .

وقد رأيت شحاذة «مجدّدة» كانت تأتى أمام كلية البنات الإسلامية بمدينة نصر ، فى صباح أيام الامتحان ، وتدعوا بالنجاح لكل طالبة وهى تعبر إلى مدخل الكلية . وكان معظم هؤلاء الألوف من الفتيات يسقط فى حجر هذه « الفنانة » ما تيسر من النقود .

وقد نشرت إحدى الجرائد فى الصيف الماضى أن الشرطة ألقت القبض على شحاذة فى العباسية ، ووجدت معها مبلغا كبيرا جدا من النقود ، قالت إنه حصيلة يومها من الطلاب فى جامعة عين شمس وهم فى طريقهم إلى لجان الامتحان .

ومنذ بضع سنوات انتحل صحفى نابه قدير حرفة الشحاذة .

وقد عرض فى الصحف وفى التليفزيون النتائج الباهرة التى كانت من نصيبه وكان مما عرفناه من تجربته أن هناك مناطق نفوذ لعدد من المحترفين لا يستطيع أن يعتدى عليها غيرهم . وأن هناك مناطق تؤجر أو تباع لاستغلالها ، على نحو ما هو متبع بين النشالين المتخصصين فى « استغلال » خطوط خاصة من طرق المواصلات العامة .

ولكن هذا يجرنا إلى موضوع خطير له تاريخ قديم فى الإنتاج الأدبى وفى البحث الاجتماعى ، وهو موضوع الكدية .

ولعل الله تعالى يأذن أن يتاح لنا من الزمن ما يمكننا من الكتابة فيه .

مهدى علام